التراث بين الماضي الحي والغد المنشود

د. محمود أحمد السيّد

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف التراث مفهوماً وحدوداً، وأن نبيّن بعضاً من سمات تراثنا العربي ونظرة الأجانب إليه، ثم نقف على المقصود من الرؤية المعاصرة للتراث، ونقدم نماذج من صفحات مشرقة منه لنخلص إلى تبيان مناحي الماضي الحي والغد المنشود.

أولاً– التراث مفهوماً وحدوداً

التراث لغةً مصدر من الفعل وَرِث، إذ يقال: ورث فلاناً أي انتقل إليه مال فلان بعد وفاته، ويقال: وَرِث المال والمجد عن فلان: إذا صار مال فلان ومجده إليه[1].

وفي ضوء هذا المعنى اللغوي يشمل التراث الأمور المادية والمعنوية، فهو يشمل كل ما خلفته لنا الأجيال السابقة في مختلف الميادين الفكرية والأثرية والمعمارية «متمثلاً في الأرض التي نحيا عليها، وما أنشئ على هذه الأرض من معالم وآثار، وما حفظ في داخلها من خيرات، وما ابتدعه عقل الأمة من مبتكرات، وما صنفه من تآليف، وما سجَّله من رسوم، وما خطَّه من مناهج، ورسمه من سبل، ونظمه من مسالك وطرق، وآثار ذلك كله في أخلاق الأمة وعاداتها وأنماط عيشها وسلوكها وتقاليدها»[2].

فتراثنا العربي هو مجموعة من القيم والمثل والأعمال والمضامين والأشكال التي وصلت إلينا عبر القرون لتكون خلفيتنا وحالنا وكثيراً من مستقبلنا، فهو ذاكرة الأمة العربية ورؤية الإنسان العربي للواقع والمجتمع

والكون والمستقبل[3].

وثمة من الباحثين من يرى «أن مفهوم التراث يحمل معنيين مترابطين يتولد ثانيهما عن أولهما، وأول هذين المعنيين أن التراث هو المنجز التاريخي لاجتماع إنساني في المعرفة والقيم والتنظيم والصنع. ويتجسد هذا المفهوم في تراثنا في قطاعات رئيسة أربعة وهي[4]:

1- **القطاع المعرفي**: وفيه مختلف العلوم والمعارف «علوم اللغة، العلوم العقلية، العلوم الأساسية والطبيعية، العلوم الدينية، علوم القرآن، علوم الحديث، الفقه ومذاهبه...الخ».

2- **قطاع القيم**: وفيه أنماط التفكير والسلوك والعادات والقيم الأخلاقية والاجتماعية والجمالية الموجهة للفكر والإبداع والسلوك والحياة.

3- **قطاع النظم والمؤسسات**: ومنه المؤسسات والنظم التي تستند إليها الشؤون العلمية والاجتماعية والقانونية والإدارية والاقتصادية والعسكرية «الأسرة، المدرسة، المسجد، الديوان، القضاء، الولاية، الخلافة، الوزارة، الجيش، الخراج، مما يدخل جلّه في باب الأحكام السلطانية».

4- **قطاع الإبداع والصنع**، وفيه كل الإبداعات الأدبية والفنية الصادرة عن الحاسة الجمالية، وكل المنتجات الصنعية أو التقنية المتولدة عن فعل «اليد» المقودة «بالفكر»، ويدخل في الإبداعية منها الأدب بأشكاله المختلفة والغناء والموسيقا والموروث الشعبي الشفوي، وفي الصنعية منها: الفنون المعمارية والزخرفية والتصويرية والأدوات

المادية.

وبهذا المعنى يبدو التراث كأنه هو الحضارة نفسها، أو أن التراث هو المادة والحضارة هي الصورة، والفرق الظاهر بينهما يكمن في أن مفهوم الحضارة يبدو ذا إيحاء معنوي ونظرة شاملة إلى العالم، في الوقت الذي يبدو فيه مفهوم التراث ذا إيحاء تشخيصي يحيل إلى جملة من المنجزات العيانية الوضعية.

أما المعنى الثاني الذي يحمله مفهوم التراث فيتمثل في أن التراث هو كل ما هو حاضر في وعينا الشامل وفي تشخيصنا الحاضر مما ينحدر إلينا من التجارب الماضية في المعرفة والقيم والنظم والمصنوعات...الخ.

ومن هنا ينظر إلى التراث «لا على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه تمام هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات، وبعبارة أخرى إنه في آن واحد المعرفي والإيديولوجي وأساسهما العقل وبطانتهما الوجدانية في الثقافة العربية الإسلامية»[5].

وفي ضوء ذلك يكون التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء ماضينا أم ماضي غيرنا القريب منه أو البعيد. وهذا التعريف للتراث عام، «فهو يشمل التراث المعنوي من سلوك وفكر، والتراث المادي كالآثار وغيرها، ويشمل التراث القومي «ما هو حاضر فينا من ماضينا»، والتراث الإنساني «ما هو حاضر فينا من ماضي غيرنا»، كما يربط تراث الماضي بالحاضر مباشرة، فليس التراث ما ينتمي إلى الماضي البعيد وحسب، بل هو أيضاً ما ينتمي إلى الماضي القريب، والماضي القريب متصل بالحاضر، والحاضر مجاله ضيّق فهو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل، وما فينا أو معنا من

حاضرنا من جهة اتصاله بالماضي هو تراث أيضاً»[6].

وإذا كان لأمتنا تراث ضخم في وجهيه المادي والمعنوي كان لابد لنا قبل إبداء الرؤية المعاصرة لهذا التراث من أن نتعرف سماته العامة، وهذا ما سنتناوله في القسم الثاني من هذا البحث.

ثانياً– من سمات التراث العربي

يتسم تراثنا العربي بسمات متعددة منها العراقة والشمولية والعقلنة واعتماد المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق، والتوازن والتكامل، والانفتاح على الثقافات الأخرى، والمناقبية والإنسانية، وفيما يلي فكرة موجزة عن كل سمة من هذه السمات.

1-**العراقة:** يتسم تراث أمتنا العربية بالعراقة، إذ إنه نشأ قبل ألوف السنين على الأرض العربية، وامتد متنامياً عبر الزمان والمكان، معبراً عن ذاته في عدد كبير من الحضارات، قبل أن يتحد في النهاية في حضارة عربية إسلامية واحدة ذات ثقافة واحدة شملت الأرض العربية كلها.

لقد قدر للشرق القديم أن يسبق الغرب «اليونان» إلى ابتداع حضارات إنسانية تميزت بالنضج، وكانت تقوم على صناعات وعلوم عملية، وتستند إلى نظر ديني مجرد. ومن دلالات العلوم التي توصل إليها الشرق القديم أن قدماء المصريين كانوا أول من ابتدع الرياضيات، واخترع الميكانيكا، وأنشأ المصريون القدماء علم الطب، وكان البابليون والكلدانيون أول من درس أجرام السماء، فقسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، وتنبؤوا بكسوف الشمس وخسوف القمر. وكانت مدرسة الرواقيين الكبرى من مدارس الفلسفة اليونانية، شرقية في أصول مبادئها وتفكيرها وفي أساتذتها، وكان

رأسها «زينون» من أصل فينيقي، وكان بين أقطابها من ولد في صيدا ومن ولد على ضفاف نهر العاصي أو نهر دجلة، ومعروف ما كان لهذه المدرسة من مكانة في الثقافة اليونانية، وما لها من تأثير في مدرسة الإسكندرية، ومن ثم في عصر النهضة الأوربية. ومن ذلك على سبيل المثال أيضاً أن اليونان اقتبسوا نظام الأوزان وسك النقود من البابليين، وكان للآراميين بطون في العراق وبطون أخرى في سيناء وفلسطين، فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادي النهرين ووادي النيل ومن فلسطين إلى اليونان وغيرها من شعوب البحر الأبيض المتوسط، كما برع اليونان في بناء السفن وفي الملاحة، لكنهم اتبعوا في ذلك الفينيقيين الذين كانوا سابقين في فنون البحار وفنون التجارة، وعملوا على التبادل الحضاري أوسع ما يكون[7].

أما عن التفكير النظري الديني فقد سبقوا اليونان إلى البحث في الألوهية والبعث والخير والشر، ومنذ أكثر من ثلاثين قرناً توصل «أخناتون» في مصر القديمة إلى وحدانية الإله، واهتدت الزرادشتية الفارسية إلى ثنائية إلهي الخير والشر، وعرف الهنود حلول الله في مخلوقاته[8].

ويعد وطننا العربي مهداً للحضارات الإنسانية الأولى وللديانات السماوية والقيم الروحية، ظهرت فيه، فدافع عنها، وحافظ على استمرارها، إدراكاً منه لرسالته الإنسانية الكبرى، فهو عريق في الحضارة، متهيء لتلقي المعاني الروحية، تجمعت له في تاريخه فضائل الإنسانية في الإنشاء والتعمير وفضائلها في الوصل بين الأرض والسماء.

ولقد تنزلت الديانات السماوية الكبرى لأهل الكتاب في هذا الوطن دون سواه، وجوهر الدين واحد في هذه الديانات، فقد دعا موسى إلى

التوحيد ونبذ الأصنام، ووصف موسى الإله بالرحمة، ولكن بني إسرائيل ظلوا على وصف الإله بالغَيرة والبطش والتعطش للدماء. وفي الديانة المسيحية الطهر كل الطهر في نقاء الضمير، وكانت الرسالة في جوهرها تبشيراً بالرحمة والمحبة، وجاء الإسلام دين رحمة وعدالة ومساواة.

وتراثنا العربي في عراقته أغنى من أن يحد بمرحلة حضارية واحدة، فمن بابل وآشور، ومن الفراعنة والبابليين وغيرهم من بناة الحضارات القديمة، ومن الديانات السماوية ينحدر إلينا تراث ضخم يعد من أعرق الثقافات في الزمن، وأوسعها امتداداً في المكان، وأكثرها غنى في العطاء القومي والإنساني على السواء، وهي ثقافة من ثقافات قليلة أخذت الصفة العالمية قبل هذا العصر الحديث سواء في جمعها ثمرات الحضارات التي سبقتها وتمثلتها أو في انتشارها وتجاوب قيمها ومفاهيمها لدى أكثر الشعوب المتحضرة في عهدها.

2- **الشمولية**: لقد كانت الحضارات القديمة أميل إلى التخصص، فعرفت اليونان بالفلسفة، وعرفت فارس بالآداب ومراسم الحكم، وعرفت الهند بالحكمة، وعرف الرومان بالتشريع والإدارة، وعرفت الحضارة العربية بالشمول، إذ إنها أسهمت في ميادين المعرفة المختلفة والمتنوعة في جو من التوافق والتناغم والانسجام، وتمثل إسهام الحضارة العربية في المجال العلمي في ميادين الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والهندسة وعلم التعمية..الخ. كما تمثل إسهامها في المجال الاجتماعي والفكري في ميادين الحكم والإدارة وولاية المظالم والحسبة والوقف وفي ميادين الفلسفة وعلم

العمران وفي ميادين اللغة وعلومها...الخ.

ومن مظاهر هذه الشمولية أن الإسلام تجاوز الطور الذي كان فيه الدين تعبيراً فردياً عن الإنسان في علاقته بالسماء ليصبح تعبيراً شمولياً عن علاقة الإنسان بالسماء وعلاقته بالأرض ومن عليها وما عليها، إنه لا يكتفي بتنظيم علاقة الإنسان بربه فحسب، بل يسعى إلى تنظيم حياة الأفراد الخاصة ويربطها بحياة المجتمع العامة، ويربط الحياتين معاً بالمثل الإنسانية العليا التي هي تراث البشرية جمعاء، وبذلك تتداخل كل هذه العلاقات وتتشابك بحيث يصبح الواقع صورة للمآل والمثال تعبيراً عن الواقع، وأضحت الحضارة العربية الإسلامية شاملة تجمع كل تراث البشرية الروحي وتوجهه لخدمة الحياة لتبني الفرد المؤمن بربه، المتعاطف مع أخيه الإنسان، العامل لخير نفسه وخير مواطنيه ومجتمعه وخير الإنسانية جمعاء[9].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه السمة، سمة الشمولية، لم تكن لتشمل الحركة الفكرية فقط، وإنما تجاوزت ذلك إلى غنى تلك الحركة وعمقها عمقاً يستأثر بالفكر والوجدان، ويشهد على هذا الغنى ضخامة ما بقي من تراثها على الرغم مما أصابه من التبدد والضياع والنهب والسرقة والإبعاد.

3-**العقلنة**: جاء الدين الإسلامي معبراً عن النقلة الحضارية الكبيرة القائمة على سيادة العقل البشري وتحكيمه في كل ما يتعلق بحياة الناس، ولم يستند في إقناع الناس إلى معجزة أو خارقة، وإنما استند إلى الدليل والبرهان العقلي، وكان تحديه للناس عقلياً. ولعل روح الحضارة الإسلامية يكمن إلى جانب إيمانها القوي بالله في إيمانها العظيم بالإنسان وبعقل الإنسان وقدرته غير المحدودة على التفكر

والتفكير. ومن هنا كثرت الإشارات إلى التفكير والتفكر في القرآن الكريم، والتفكير لا يستقيم معه التقليد المطلق وقفل باب الاجتهاد[10]؛ وإنما يستقيم معه إعمال العقل والتفكير والتدبر في نظام هذا الكون، وإلى الأمانة العلمية في الملاحظة انطلاقاً من قوله تعالى: «ولا تقف ما ليس لك به علمٌ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»، ودعا الإسلام إلى الابتعاد عن الكهانة والوهم والإيهام والخوارق، وحال دون منع العقل من الانطلاق احتراماً له، وأكبر هذه الموانع العرف الذي يوصف بعبادة السلف والاقتداء الأعمى بالسلطة الدينية، والخوف المهين من أصحاب السلطة الدنيوية، إذ لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، ولا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل والدين، ولا يقبل منه أن يلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء.

ومن مظاهر العقلنة النقد الموضوعي للآراء، إذ اعتمد هذا النقد في الحكم على آراء الفلاسفة اليونانيين على يد ابن سينا والغزالي والكندي والفارابي وابن رشد الذي يعد من أعظم فلاسفة الإسلام، إذ إنه شرح فلسفة أرسطو حتى وصفه الأوربيون بالشارح، وتعدى الشرح والتفسير إلى التعديل والتصحيح، واقتبس الغرب فلسفة ابن رشد، ومن حسناتها أنها أطلقت بينهم مجال البحث والمناقشة وحرية الرأي والتفكير.

وإذا كانت الفلسفة الإسلامية قد اتصلت بالفلسفة اليونانية خاصة فإنها وقفت منها موقف الناقد وموقف الشارح معاً، فضلاً عن تجاوزها ذلك

إلى الإبداع والابتكار.

وتجدر الإشارة إلى أن التعميم لا يجوز فيما يتعلق بسمة العقلنة في التراث العربي، فقد كانت هناك حالات في حنايا الحركة الفكرية ذاتها سادت فيها اللاعقلانية، وتغلبت الأهواء، وضلت العقول على النحو الذي نلاحظه حالياً في الحضارة الأوربية التي توصف بالعلمية، ولكن فيها نماذج صارخة تنأى عن العلمية، وتستسلم للأهواء، ومن بينها النزعات اللا إنسانية كالعنصرية والاستعلاء.

4-**اعتماد المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقائق**: اتبع العرب في العلوم الطبيعية وفي جوانبها التطبيقية كالطب والصيدلة منهجية علمية راقية تقوم على خمس دعائم[11].

1- نفي الخرافات
2- سعة الاطلاع
3- الرحلات للبحث والتنقيب
4- التجارب
5- الموازنة

فقد عنوا بالكيمياء، وكان من أبرز من نحا هذا المنحى جابر بن حيان، ومن أقواله المأثورة «إن علماء الطبيعة لا يفرحون بغزارة المادة، ولكنهم يبتهجون بمهارة طرقهم في التجارب»، وابن الهيثم في البصريات، وهو أول من قام بتشريح العين ودراسة أجزائها، وله فيها رسائل معروفة في أوربا، وله نظرية في النور والإضاءة. وللبيروني فضل السبق إلى دراسة السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال، وابن البيطار في النبات، وحنين ابن اسحاق في التشريح،

وابن الهيثم في اكتشاف المجهر.

وعُني العرب بالجراحة والتشريح، ووضعوا بعض الآلات لأغراضها، وأشار ابن الطفيل في رسالة حي بن يقظان إلى تجارب في تشريح الحيوانات تدل على فهم وممارسة، واشتهر آل زهر في الأندلس بالطب وتوارثوه ابناً عن أب، وبرع العرب في الصيدلة، وراعوا التناسب بين المواد في تركيب الأدوية.

ولقد انعكست تقاليد العرب في الطب في الناحية العملية في طرائق التعليم الطبي السريري القائمة على مشاهدة المرضى والاستماع بدقة إلى شكواهم، واستقصاء أحوالهم، وزيارة منازلهم. ومن وسائل ذلك المرور على أسرة المرضى في البيمارستانات حيث كان شيوخ الأطباء يصطحبون تلاميذهم، ويفسرون لهم أحوال المرضى، ويشيرون عليهم بالعلاج، وهي وسيلة التعليم الطبي السليم القائم على المشاهدة والمعاينة والتجربة، وليس نقلاً عن الكتب والمخطوطات. ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن الجاحظ في تراثنا كان مولعاً بإجراء التجارب على الحيوانات مع أنه عاش في بيئة تعنى بالحفظ وتعلي من قدر الحفاظ.

5-**التوازن والتكامل**: وتجلى ذلك بين الفكر والعمل والإرادة والمسؤولية والدنيا والآخرة والمادة والروح، والنظر والعمل، وبين جميع جوانب الشخصية الإنسانية فكراً ونزوعاً وأداءً.

وإذا كان الإسلام خاتمة رسالات السماء فإنه عقيدة شاملة متكاملة بلغت أعلى منزلة في التوحيد والتنزيه للإله، وميزت الإنسان بالتفضيل معوّلة على عقله وضميره وسعيه إلى طلب الكمال، وأقامت المجتمع على أساس

من العدل والحق، كما أقامت الإنسانية على أساس من المساواة والإخاء.

6- **الانفتاح على الثقافات الأخرى:** وهو انفتاح مستمد من عراقة الحضارة في الوطن العربي وموقعه وسطاً بين الحضارات القديمة، ومستمد أيضاً من أصول العقيدة الإسلامية ودعوتها الإنسانية في منأى عن العنصرية، فوسع المسلمون عبر تاريخهم الأديان الأخرى، وعاشوا بأمان وسلام ومودة وتفاهم مع المسيحية واليهودية والصابئة وسواها من العقائد التي لم يحاربها أحد في الدولة الإسلامية على مر العصور، لأن شعار الإسلام «لا إكراه في الدين» سورة البقرة (256)، ولأن خطابه حتى للكافرين «لكم دينكم ولي دين» سورة الكافرون (6).

واحترم العرب الثقافات الأخرى، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية..الخ، وكانت الكلمات النبوية القائلة «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها» هي الهادي للعرب المسلمين الفاتحين، فهم لم يدمروا حضارات البلاد التي فتحوها، ولم يقفوا منها موقف الرفض أو العداء، بل لقد تتلمذوا عليها، واحترموا علماءها ومفكريها، واستلهموا ما هو صالح من قيمها وأصولها وقسماتها مما لا يتعارض مع الروح العربية الإسلامية، ثم صنعوا مع شعوب هذه البلدان ذلك المزيج الحضاري الجديد الذي يتكون من فكر الإسلام الشاب والنقي، وروح العروبة المتوثبة، والمواريث الحضارية الصالحة في البلاد التي فتحوها، وهو المزيج الذي تبلور في الحضارة العربية الإسلامية»[12].

أما حركة الترجمة التي نهض بها العرب عن الفارسية والهندية واليونانية وغيرها، فكانت ثمة بواعث جديدة وراءها، ومن هذه البواعث[13]:

أ- المواقف الإنسانية والعقلانية التي اعتمدها الإسلام من حيث خلاصه من النزعات العنصرية، واعتماده على العقل والتفكير.

ب- حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم، يخصون منها ما كان ذا نفع في حياتهم الواقعية كالطب والحساب والفلك...الخ.

ج- تطور المجتمع العربي واتساع اتصاله بالشعوب الأخرى سواء من دخلت في الإسلام أو بقيت على عقائدها، واستقرت في الأمصار، وما تولد عن هذا الاتصال من تبادل الثقافات على أنه مظهر من مظاهر الحضارة.

د- اهتمام بعض الخلفاء برعاية العلم والعلماء وحسن مكافأتهم لهم.

7- **المناقبية والإنسانية:** إن جوهر أمتنا يقوم على الانفتاح الحضاري الإنساني، من أرضها قامت الفتوحات، وعبرها مرت، كما أنها تعرضت لمحن واجتياحات، ومع ذلك كله بقيت تقدم للعالم أنموذجاً اجتماعياً إنسانياً يؤكد انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان، وظلت تحمل راية الحياة المعطاء، راية الأخوة الإنسانية، فبعد أن اخترعت الأبجدية وقدمتها للعالم، وبعد أن شقت البحار ناشرة الثقافة، وبعد أن نشأت في رباها أول الشرائع بدءاً بشريعة حمورابي وانتهاءً بشرائع السماء، لا نستغرب ما قيل من أن لكل إنسان في العالم وطنين: أحدهما مسقط رأسه، وثانيهما مسقط روحه وجوهره الإنساني وهو بيئة أمتنا، وليس عجيباً أن تكون الرسالات السماوية التي أسهمت في السمو بالإنسان إلى ذرا الإنسانية السمحة قد وجدت في هذه البيئة الأرض الخصبة لنموها وانتشارها في العالم، لأنها في توقها

الإنساني التوحيدي لامست روح هذه الأمة، روح هذا الوجود الحضاري، فوجد فيها تعبيراً عن أشواقه ومثله ونزعته الإنسانية، فحملها وبشّر بها العالم[14].

وإذا كان من سمات الحضارة العربية الإسلامية تحقيق العدالة والمساواة والجهر بالرأي والتمسك بالحق وإشاعة الأمن والسلام والاستقرار والنزعة الإنسانية في ذلك كله فإن ذلك لم يكن للمسلمين فقط، بل لغيرهم من الديانات الأخرى، إذ لم تكن الوظائف تعطى إلا للمستحق الكفي بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، ويقول «مارك سايس» في وصف الإمبراطورية العربية الإسلامية في عهد الرشيد «وكان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة»[15].

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، فقد كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم وديانتهم، قال خلف بن المثنى: «لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق شعوبي)، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي)، وبشار بن برد (وهو شعوبي)، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحرّاني الشاعر (وهو صابئي)، وكانوا يجتمعون فيتناشَدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم»[16].

ويمكننا أن نتصور نبل الغايات وسمو الأهداف الإنسانية التي اختطها محمد ﷺ لأصحابه من خلال وصيته لهم في غزوة مؤتة إذ قال «وأوصيكم بتقوى الله، ومن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا (الغلول: السرقة)، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً في صومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»[17].

ولقد تجاوزت التربية العربية الإسلامية في إنسانيتها حدود الإنسان إلى الحيوان، إذ إنها مضرب المثل في الرفق بالحيوان والرحمة به[18]. وما كان ازدهار الثقافة العربية بجانبيها في الدراسات الإنسانية والعلمية إلا نتيجة التزام منهجية سليمة تصدر أصلاً عن مصدرين أولهما المصدر العقلاني بالتعويل على العقل والتفكير، وثانيهما المصدر الأخلاقي الإنساني بتأكيد مسؤولية الإنسان وتعويله على ضميره وأخلاقه وإنسانيته في عمله وأدائه.

وتجدر الإشارة إلى أن لكل قاعدة استثناء، إذ لم تكن تلك السمات التي سبقت الإشارة إليها في معرض الحديث عن خصائص تراثنا العربي إلا في الأعم الأغلب، وقد تكون ثمة استثناءات هنا أو هناك. وهذا ما يدفع بنا إلى وقفة مستأنية ونظرة معاصرة ورؤية جديدة لتراثنا.

وقبل أن نقف هذه الوقفة المستأنية يحسن بنا أن نأخذ فكرة ولو موجزة عن وضع تراثنا في عيون الأجانب.

ثالثاً– تراثنا في رؤى أجنبية

ثمة من رأى من الأوربيين أن الحضارة العربية الإسلامية اقتصرت على النقل دون الأصالة، وعلى التقليد والمحاكاة دون الابتكار والإبداع، وهذه

دعوة عنصرية مردودة، وحسب الحضارة العربية أن تراث الحضارات القديمة لم ينقطع على يديها، إذ إنها حفظت للإنسانية تراثها، وزادت عليه، ونقلته إلى من تلاها.

ولقد حاول بعض المستشرقين أن يطمس تاريخ العرب الحضاري في إشارتهم إلى أن العرب كانوا نقلة ومترجمين عن جالينوس وأبقراط، وأن الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس، وليس فيه جهد إبداعي أي بمعنى أن العرب كانوا وسطاء، ولم يكن عندهم روح الإنتاج الجديد والتأليف، وهذا افتراء تكذبه في الطب مثلاً مخطوطات الرازي وما جاء فيها من تصويبات كثيرة لأبقراط وجالينوس، كما تكذبه إبداعات ابن الهيثم في البصريات، وقد ظلت أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعتمد في طبها إلا على مخطوطات ابن سينا والرازي والزهراوي وابن النفيس، ومازالت أوروبا تسمي بعض المركبات الكيميائية بأسمائها العربية كالكحول والشراب وغيرها من مجالات متنوعة كالسمت والنظير والجبر والخوارزمي والصفر..الخ.

لقد بنى العرب هياكل علومهم الطبية عن الطب الإغريقي فأخذوا كثيراً عن جالينوس وجعلوه أستاذهم، وألموا ببعض الطب الفارسي والهندي، ولكنهم كيفوا الطب حسب حاجاتهم، وأضافوا إليه كثيراً فأغنوه وتوسعوا به، واتبعوا طرقهم الخاصة وأساليبهم العلمية الرصينة، وقاموا بالبحوث العلمية. وانطلاقاً من أمانتهم العلمية نسبوا للإغريق كل ما ترجموه عنهم وأخذوه منهم، وهم الذين أغنوا التراث الإغريقي وخلدوه، ونشروا علومهم وثقافاتهم التي كانت هي الأساس القوي للنهضة العلمية في أوروبا، لكن نفراً

من علماء الغرب لم يكونوا مثلهم ملتزمين بالأمانة العلمية، فأنكر كثير منهم على العرب فتوحهم الطبية، بل حاول كثير منهم التعتيم على الحضارة العربية الإسلامية بعد أن نهلوا من فضلها، حيث وجد كثير من الكتب الهامة التي ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأخرى لا تحمل اسم المؤلف الأصلي، وكان يحذف هذا الاسم من غير ذكر لجنسيته أو دينه، فكتب الجراح أبي القاسم الزهراوي وأبي بكر الرازي المترجمة كانت تحمل أسماء غير أسماء مؤلفيها الأصليين، ولكن الأمناء المنصفين من الكتاب الأوربيين الغربيين كانوا يتحرّون الحقيقة ويذكرون الأثر الكبير والمضيء الذي تركه العرب في تقدم الطب والعلوم الأخرى، فها هو ذا «جورج سارتون» يؤرخ للعلوم فيسمي كل عصر من العصور التي اختارها باسم المبدعين فيه، فيرى أن الحقبة الممتدة من 450 إلى 400 ق م هي عصر أفلاطون، ثم يليه عصر أرسطو فأقليدس فأرخميدس. أما الحقبة الممتدة بين 600 و700 للميلاد فهي عصر الصينيين، والمدة الواقعة بين 750 و1100 للميلاد هي عصر العلماء العرب الذين تعاقبوا في سلسلة موصولة، وكان منهم جابر بن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي والبيروني وابن سينا وابن الهيثم. وبعد هذه الحقبة البالغة 350 عاماً، أي بعد 1100م تبرز أسماء من الأوربيين يتقاسم معهم العرب القيادة العلمية في مدى 250 عاماً. ونجد في هذه الحقبة من الأسماء العربية ابن رشد والطوسي وابن النفيس، إلى جانب جيرارد كريمونا وورود بيكون. ولم تقتصر الصلة على العلوم وحدها بل شملت مجالات الفكر والأدب كلها[19].

لقد تأثر شعر التروبادور والبروفانسيين بابن قزمان، كما تأثر قصاصون

ألمان كثيرون بالعرب، وكان لقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنه وقصة السندباد أثرها وسحرها في مخيلة الأدباء الأسبان أمثال بدرو ألفونسو، واستلهم Daniel Defo في قصة «روبنسون كروزو» قصة حي بن يقظان لابن الطفيل. أما الكوميديا الإلهية للشاعر الكبير «دانتي» التي يروي فيها رحلته إلى السماء والجحيم فإن فيها أثراً من قصة الإسراء والمعراج، أو أثراً من رسالة الغفران للمعري، أو من المتصوف المشهور ابن عربي كما قال آخرون. وماذا نقول عن دور ابن ماجد في الكشوفات الجغرافية بالتعاون مع أبناء الغرب، ودور الشريف الإدريسي الذي استأثر بإعجاب المؤرخين العرب والأوروبيين، والذي نحت على لوحة من الفضة خريطة العالم لملك صقلية النورماندي؟ وليس من يذكر مفكر المسيحية الكبير «توما الأكويني» إلا ويقرنه بالفيلسوف العربي المسلم ابن رشد، وهذا إلى جانب الإنتاج العربي في مجالات التربية والاجتماع مثل القابسي وابن خلدون. وثمة من يربط بين نظرية الجشتالت وظهور كتاب «الزرنوجي» المتوفى عام 591 هـ في التربية إلى اللغة الألمانية[20].

وعندما أفاق الغربيون من سباتهم، وأرادوا أن يحذوا حذو العرب ويقلدوهم وينقلوا علومهم ومعارفهم وجدوا أنفسهم لما طفقوا ينهضون عاجزين عن محاكاة العرب وبلوغ شأوهم في العلوم والكتابة والبيان، فها هو ذا شاعر إيطاليا الكبير «بيتزارك» في القرن الرابع عشر الميلادي يندد ببني قومه، ويستنهض هممهم، ويهيب بهم، ويبث في أنفسهم العزيمة والثقة قائلاً: «ماذا؟ لقد استطاع «شيشرون» أن يكون خطيباً بعد ديموستن، واستطاع «فيرجيل» أن يكون شاعراً بعد «هوميروس»، وبعد العرب لا

يسمح لأحد بالكتابة! لقد جارينا اليونان غالباً، وتجاوزناهم أحياناً، وبذلك جارينا وتجاوزنا غالبية الأمم، وتقولون: إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب، يا للجنون! ويا للخُبال! بل يا لعبقرية إيطاليا الغافية أو المنطفئة»[21].

ويقول الكاتب الإسباني القديم «ألفار Alvaro» في القرن التاسع الميلادي: «إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، ولقد ساء ذلك بعض كبار الأسبان فقال: «إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح» فأين اليوم من رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء وأسفاه! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أو لغة غير الأدب العربي، ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات، فيا للأسى! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم، فلا تكاد تجد منهم اليوم واحداً في كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق! أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير فيها على أحسن أسلوب!»[22].

وقال "ويلز" عن حضارة العرب: «وكانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك

منها شيئاً في ظل الإبهام، فهذه الخاصة التي جاءتنا —نحن الأوربيين– من اليونان وهي نشدان النور، إنما جاءتنا بطريق العرب، ولم تهبط على أهل العصر الحاضر بطريق اللاتين». وقال "فلوريان": كان للعرب عصر مجيد عُرفوا فيه بانكبابهم على الدرس، وسعيهم في ترقية العلم والفن، ولا نبالغ إذا قلنا إن أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.

وقال العالم الفرنسي الكبير "سيديو": إن إنتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوربا.

ويقول المستشرق السوفيتي "كراتشكوفسكي" في مدخل كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي": «إن المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في عصرنا، هذا وقد وضح بجلاء في الخمسين سنة الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لأنفسها طرقاً ومسالك جديدة في العصور الوسطى، ومازالت حية إلى أيامنا هذه، أعني علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا. أما فيما يتعلق بالأدب العالمي فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءاً أساسياً من التراث العام للبشرية، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد من المصنفات والفنون الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية»[23].

وتقول "زيغريد هونكة" في كتابها النفيس "شمس العرب تسطع على الغرب": دب في الطب الغربي فجأة في القرن السادس عشر شعور غريب بالخجل من تقليده للطب العربي، وبقي قروناً طويلة من الزمن نسخة ممسوخة

عنه، وكانت معظم المخطوطات الأوربية الطبية في أول عصر الترجمة وحتى القرن السابع عشر تقليداً للعرب ونقلاً منهم، وقبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[24].

وقال المؤرخ الكبير "جرمان مونبلية": «إننا نشهد للكتاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بمزية الإيضاح التام والطريقة التعليمية».

كما قال الأستاذ "فورغ" الذي لمع اسمه في بداية القرن العشرين لا في فرنسا فحسب، بل في العالم الغربي كله، في خطاب تذكاري ألقاه في إحدى الجامعات الأسبانية: «إن أسبانيا أرض قائمة بنفسها، يتحلى أهلها بسرعة الفكر والاستعداد للنضال، مما يجعل هذه الأمة فريدة في بابها، ويرجع ذلك إلى وجود العرب في إسبانيا، واختلاطهم بشعبها اختلاطاً دموياً أدى إلى السير بأوربا في مضمار التقدم، مما دعا "ليبري" إلى القول: احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوربا عدة قرون[25].

وقال الملك الأسباني "خوان كارلوس" في حفل افتتاح المركز الإسلامي بمدريد: «إن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس تشكل شطراً من تاريخ بلادنا، ذلك التاريخ المشترك الذي قدم إلى العالم وخلال قرون ثمانية عدداً كبيراً من الشخصيات اللامعة في تاريخ البشرية بأبعاده الواسعة».

ويتابع كلامه قائلاً: «إن أسبانيا اليوم تشعر بالفخار بماضيها الذي تقاسمته مع الشعب العربي العظيم وبمساهمات رجاله في التقدم الثقافي والعلمي للبشرية»[26].

تلك هي باقة من الأقوال السلبية والإيجابية لنفر من الأجانب في تراثنا

العربي الإسلامي، وعلينا —نحن أبناء هذا التراث– أن نعيد النظر فيه وفق نظرة معاصرة جديدة، وهذا ما سنتناوله في القسم الرابع من هذا البحث.

رابعاً– نحو رؤية معاصرة للتراث

يذهب بعضهم إلى أن التراث قد اكتسى في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنى مختلفاً مباينـاً إن لم يكن مناقضاً لمعنى مرادفه «الميراث» في الاصطلاح العربي القديم، ذلك أنه بينما يفيد لفظ «الميراث» التركة التي توزع على الورثة أو نصيب كل منهم منها، أصبح لفظ «التراث» يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جمعاً خلفاً لسلف. فإذا كان «الإرث» أو «الميراث» هو عنوان اختفاء الأب، وحلول الابن محله فإن «التراث» أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنواناً على حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر[27].

وفي حياتنا المعاصرة ما يزال مفهوم التراث قاصراً لدى بعضهم، إذ إنه حين يذكر يتجه القصد منه غالباً إلى نطاق ضيّق محدود يحصره في قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام، فإذا كل ما ينشر من التراث أو أكثر لا يعدو ذخائر العربية: لغة وبلاغة وأدباً، والإسلام: عقيدة وشريعة وفلسفة وتاريخاً، وإذا جمهرة المشتغلين من العرب بتحقيق التراث هم من علماء العربية وفقهاء الإسلام والمتخصصين في درس فلسفته وتاريخه.

ويخشى أن يترسخ هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا فيغيب عنا أول ما يغيب أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم من طب وعقاقير وكيمياء

ونبات وفلك ورياضيات..الخ[28].

ومن الفهم القاصر أيضاً أن ثمة من يرى أن حدود تراث أمتنا العربية يقف عند بداية التاريخ الإسلامي، والواقع أنه يمتد مع ماضي الأمة موغلاً في أعماق الزمن، فماضي كل الشعوب التي أسلمت وتعربت هو من ماضي هذه الأمة، وكل الحضارات الفكرية والمادية التي ازدهرت في أرضنا العربية هي في الواقع التاريخي ميراثنا جميعاً.

وهذا الإدراك الواعي يصحح ما شاع فينا من أن مكاننا في التاريخ الحضاري لم يأخذ دوراً قيادياً إلا في العصر الوسيط حين كان الشرق الإسلامي مناراً للعلم والمعرفة والتمدن وأوربا غارقة في ظلمات عصورها الوسطى. وهذا القول الشائع نشأ عن جهل أو غفلة عن الواقع التاريخي الذي يشهد بأن الأمة العربية في العصر الإسلامي قد اندمجت فيها كل الشعوب التي تعربت، فصار ماضيها كله من ماضي هذه الأمة[29].

ومن هنا لا يجوز أن نقف بالتراث العربي عند حد زماني أو مكاني يحصره في نصوص الأدب الجاهلي وذخائر علوم العربية والتاريخ الإسلامي، بل تمتد أبعاده فتستوعب التراث القديم لكل أقطار وطننا العربي على امتداد الزمان والمكان منذ أقدم العصور إلى الآن.

وإذا كان لماضي الأمة تأثير في حاضرها ومستقبلها كان لابدّ من فهم هذا الماضي ودراسته لأخذ الدروس والعبر منه، ولقد «جاء في أساطير الأولين أن الإله (جانوس) ملك (لاسيوم) أجار مرة الإله (سارتونس) المطرود من السماء فكافأه (سارتونس) على صنيعه بمنحه بصيرة وقادة تدرك كل شيء، وتحيط بالماضي والمستقبل، ويمثل (جانوس) في الأساطير الرومانية برأس

ذي وجهين، أحدهما ينظر إلى الماضي بعينين تلوح فيهما الخشية والعبرة والمثل، والآخر ينظر إلى المستقبل بعينين يتلألأ فيهما الشوق والتوقان والأمل، وإذا وضع هذا الرأس على أبواب المنازل والقلاع والمدن جعل أحد وجهيه ناظراً إلى داخل الباب والآخر إلى خارجه، لأنه في نظرهم حارس الأبواب والمداخل، وإله الدخول والخروج».

إن هذه الأسطورة الرومانية توحي إلى الفيلسوف بكثير من المعاني كما يرى المرحوم الدكتور جميل صليبا، فهي تشير أولاً إلى أن البصيرة الوقادة تجعل الإنسان قادراً على إدراك الماضي والمستقبل معاً، وهي تشير إلى أن إدراك المستقبل متصل بإدراك الماضي ومبني عليه، وهي تشير ثالثاً إلى أن معرفة الماضي ضرورية لمعرفة الحاضر، لأن الحاضر كما يقول الفلاسفة حد متحرك فاصل بين الماضي والمستقبل، فالماضي كما يقولون مثل والحاضر عمل والمستقبل أمل»[30].

إننا في أمس الحاجة إلى تأكيد الاعتزاز بتراث أمتنا وماضيها لأن من لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له، ذلك لأن بناء الحاضر في سبيل المستقبل يكون دائماً على جسر من الماضي، وأن الفرق بين المجتمعات الحية والمجتمعات الراكدة في مجال النظر إلى الماضي ليس في درجة التشبث بهذا الماضي، فكلاهما حريص أشد الحرص على ماضيه، ولكنه فرق في النوع، إذ تهتدي الشعوب المتطورة بروح الماضي وجوهره في حين تتمسك الشعوب المتخلفة بأشكاله وقوالبه المحنطة، والفرق بين النظرتين فرق بعيد يكاد يبلغ مبلغ الفرق بين الموت والحياة، ذلك لأن الوصول إلى تجريد الماضي من حسيته المباشرة وأشكاله المادية والارتفاع به إلى منزلة النظر الروحي المجرد هو

بداية السير في طريق التطور الحضاري[31].

فالتقدم الحقيقي يكون ببعث الماضي وتجديده، وبث الحيوية فيه، ثم وصله بأسباب الحياة لأن شخصية الأمة مبنية على أساسه. ولا يمكن بعث الماضي حياً دون تغيير شامل في جوانبه بتغذيته بروافد الحاضر وشق قنواته وإزالة رواسب الزمن عن مجاريه حتى يكتسب الخصب، وتقوم على تربته الحياة من جديد.

أما الذين يريدون أن يعيدوا تراث الماضي بجرة قلم دون عناء وكد ذهن قلن يكون نصيبهم من النجاح أكثر من حسن النية، ولا يمكن إعفاؤهم من تهمة تعطيل التقدم، وإفساد التراث الذي يجب أن نفهمه فهماً جديداً، يبعث روحه الفاعلة في حياتنا المعاصرة، ويفجر قيمه الكامنة في عمق أعماقنا لتشرق على وجودنا حركة وتقدماً ونماءً[32].

والسؤال الرئيس الذي طالما وقف أمامه المفكرون هو: ماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟ وأجاب المفكر العربي الدكتور زكي نجيب محمود عن هذا السؤال قائلاً: «نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في حياتنا الراهنة أخذناها، وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث، وأما ما لا ينفع عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرينا من أبناء أوربا وأمريكا.

فإذاً المدار هو العمل والتطبيق هو ما يستطاع سلكه في جسم الحياة كما يحياها الناس، أو كما ينبغي لهم أن يحيوها، فإذا ألفيت عند السلف طريقة تنفعني اليوم في بناء المنازل، أو في رصف الطرق، أو في إقامة الحياة

الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، أو في طرائق التعبير باللفظ عما يريد الناس أن يعبروا عنه مما تعتمل به نفوسهم اليوم كان ذلك هو التراث الذي نحييه[33].

لنأخذ من الموروث جزءه العاقل المبدع الخلاق، وننبذ جزءه الآخر الخامل البليد، نأخذ جزءه العاقل المبدع الخلاق لا لنقف عند مضمونه وفحواه نبدي ونعيد، بل لنستخلص منه الشكل كي نملأ مضمون هذا الشكل من عصرنا ومن حياتنا ومن خبراتنا[34].

ومن هنا كان إحياء التراث يعني توظيفه ضمن مفاهيمنا المعاصرة، وإذا كان هذا هو مفهوم الإحياء فمن البدهي ألا يشمل الإحياء التراث بجميع مراحله وتناقضاته جملة وتفصيلاً. ومن البدهي أننا أحرار في أن نختار من التراث في ضوء معطيات واقعنا وملابسات عصرنا ومتطلبات مطامحنا في التقدم والازدهار، إذ إن ما ينبغي إحياؤه وبعثه لابد أن يكون جديراً بحياتنا الحالية، ومن البدهي أننا نجد في تراثنا ما ليس جديراً بالبقاء ولا بالحياة، وأن نجد في واقعنا من رواسبه ما ينبغي أن يستأصل ويزال، وقد لا تقل أهمية الهدم في هذه الحال عن أهمية البناء[35].

وتجدر الإشارة إلى أنه من الناحية المبدئية لا يمكن تبني التراث كاملاً لأنه ينتمي إلى الماضي، لأن العناصر المقومة للماضي لا توجد كلها في الحاضر، وليس من الضروري أن يكون حضورها في المستقبل هو حضورها نفسه في الحاضر، وبالمقابل لا يمكن رفض التراث ككل للسبب نفسه، فهو شئنا أم كرهنا مقوم أساسي من مقومات الحاضر، وتغيير الحاضر لا يعني البداية من الصفر، وهل هناك بداية من الصفر في أي مجال من المجالات؟

إن التراث العربي الإسلامي الذي بين أيدينا اليوم لم يكن فقط انعكاساً إيديولوجياً للواقع الاجتماعي والاقتصادي في الحضارة العربية الإسلامية، إنه يضم، إلى جانب ذلك رؤى ومفاهيم وتصورات دينية وفلسفية وأخلاقية وعلمية انتقلت إليه من الحضارات القديمة، مما يجعل الجانب الإنساني فيه –جانب الاستمرارية– يحتل مكانة بارزة.

ومع ذلك لابد من نظرة نقدية واعية للتراث تحترم عالميته في آن وخصوصيته التاريخية، فلا يجوز مثلاً نقل صراعات الماضي إلى الحاضر، ففي هذا المجموع التراثي عناصر قابلة للحياة والتطوير، وأخرى انتهى أمرها بانتهاء لحظتها في سلسلة التطور. إن التراث خزان للأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها، أو ما هو قابل لأن يعينها على الحركة والتقدم[36].

لابد إذاً من الاختيار، ومعيار الاختيار دائماً اهتمامات الحاضر والتطلعات المستقبلية، وعندما نتحدث عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل يجب أن ننطلق من رؤية واضحة واعية من حيث إن الماضي والمستقبل هما كالحاضر ليسا واقفين جامدين، بل هما صيرورة وحركة ونتيجة صيرورة وحركة، وأن كل اختيار واصطفاء ومعاصرة تشكل قراءة جديدة.

إننا في وطننا العربي محتاجون إلى العقلانية لفهم حاضرنا وبناء مستقبلنا، ولفهم ماضينا أيضاً، فالتراث العربي لم يدرس دراسة عقلانية وافية بعد، وعملية النقد المنهجي لتراثنا لم تتم بعد، وإن الرؤية العقلانية في تجديدنا لتراثنا تحتم علينا اعتماد الحوار منطلقاً ومنهجاً وسلوكاً في منأى عن التعصب والتزمت والاستبداد بالرأي.

ونخلص إلى القول إن إحياء التراث لا يعني تقليده واعتماد كل ما ورد لدى أسلافنا، ولا يعني أن نعود بحاضرنا ومستقبلنا فنصبهما في قوالب الأمس البعيد، ولكنه يعني أن نبصر جذور غدنا الذي نريده مشرقاً في الصفحات المشرقة من التراث، وأن نجعل العدل الاجتماعي الذي نكافح من أجله الامتداد المتطور لحلم أسلافنا بسيادة العدل في حياة الإنسان، وأن نجعل سمات العقلانية والقومية في تراثنا زاداً طيباً وروحاً ثورية تفعل فعلها في يومنا وغدنا، وبذلك يصبح تراثنا روحاً سارية في ضمير الأمة وعقلها، تصل مراحل تاريخها، وتدفع مسيرة تطورها خطوات وخطوات إلى الأمام، وبذلك وحده يصبح التراث طاقة فاعلة وفعالة وليس ركاماً وأكفان موتى كما يحسبه ويريده الكثيرون[37].

كما أن على التراث المتخير أن يوقظ الشعب، ويحرك فيه الذاكرة والعمل لا أن يخدره، "والوسيلة المثلى لإحياء الرغبة في إحياء التراث العربي هو مزجه بالحياة الحاضرة ودمجه في داخلها، فلا يشارفه الإنسان كما يشارف متحفاً قديماً للآثار المحفوظة، بل يشارفه كما يدخل في معترك الحياة، وينغمس في تيار العاطفة والشعور، وليس ذلك بعسير إذا حسنت المطالعة، وحسن الاجتهاد، وحسن التنبيه والاختيار[38].

إن تراثنا العربي لم يلقَ ما هو جدير به، وما هو جدير بنا من تمحيص وتدقيق قبل الرفض أو القبول إبان يقظتنا القومية، والفرز والتبويب والتصنيف والتوثيق من المهام الأولية الواجبة، على أن تتلوها مباشرة عملية التقويم التحليلي الأمين والبعيد عن الأهواء العارضة، وأخيراً تجيء عملية من أقدس الواجبات، وهي ترشيح أكثر عناصر هذا التراث قدرة على الإسهام

في تغيير واقعنا باستخدام المنهج العلمي في التفكير[39].

إننا بحاجة إلى إعادة نظر واعية إلى تراثنا لتأكيد خير ما فيه، وطرح ما لم يعد صالحاً للحياة، وربط ذلك كله بظروف الحاضر، فيكون بناء المستقبل متصلاً بماضي الأمة، وبذلك لا يحدث انفصام في شخصية الأمة الحضارية، وتأكيد الذات بالرجوع إلى التراث يعني مواجهة الحياة الحديثة بمعدة تتناول كل صالح وتأكله وتهضمه وتحيله إلى غذاء يسري في الجسد. وهذا الرجوع البناء إلى التراث هو السبيل الوحيد للإبداع والأصالة، وبمثل هذه الروح تطورت اليابان والصين، وقامت على ذلك كل الحضارات الأصيلة[40].

وليس معنى ذلك أن نقفل الباب أمام الفكر الإنساني بدعوى أن ما لدينا من تراثنا يكفينا، فهذا عين الجهل، إذ المفروض بعد أن تؤكد ذاتيتنا وإنيتنا وأصالتنا وليدة تراثنا الحي لا نريد أن نبقى حيث كنا أسرى لماضينا مهما يكُ جمال هذا الماضي، إذ إن بعضاً من مفكرينا المعاصرين مايزال مأخوذاً بالماضي ومعجباً به إلى درجة التقديس لأصحابه، وإنما نريد أن ننتقل من هذا الماضي إلى المستقبل بالانفتاح على كل ثمرات الحضارة، نأخذ منها ما يفيدنا ويقوي شخصيتنا، ويسهم في إبداعنا دون أن نكون مقلدين لأحد أو خاضعين لضغط، وهذا هو معنى الاستقلال الحضاري والإبداع، نختار ونرفض حين نريد دون ضغط أو إكراه، ولابد أن يكون اندفاعنا القوي للتزود من العلوم المعاصرة والفنون التي تتيحها لنا الحضارة الحديثة مربوطاً باندفاع لا يقل عنه قوة لاكتشاف ذواتنا بدراسة تراثنا في كل أبعاده القريبة والبعيدة[41].

وإذا كنا ننشد الحفاظ على الذاتية الثقافية العربية فإن الحفاظ عليها لا يعني الجمود في إطار من الموروث القديم، بل هو عملية تتيح لمجتمعنا أن

يتغير ويتطور دون أن يفقد هويته الأصلية، وأن يتقبل التغيير دون أن يغترب فيه، إنه التفاعل بين الأصالة والمعاصرة، وتأكيد الذاتية الثقافية لا ينفصل عن القيم المرتبطة بالتراث بمعناه العام، وصيانة التراث وإحياؤه عمل مرتبط بالفعل الإبداعي ومنطلق للثقافة الحية ومنبع لتجديد مستمر لإبداعية تتغذى من كل أشكال الثقافة الذاتية الموروثة.

إن الأصالة تعني اختيار ما في التراث من نماذج ومن أصول اختياراً قائماً على الفهم والتمييز، وعلى ما تنطوي عليه من الإبداع والابتكار وعلى ما تدل عليه من ذاتية ثقافة الأمة وذاتية العبقريات التي أسهمت في تطور هذا التراث في مجالات القيم والفكر والثقافة أو في مجالات العلم والفلسفة، أو في مجالات السياسة والإدارة، وجوهرها تأكيد خصائص الإبداع والابتكار، وعلى ذاتية الثقافة وتميزها، وعلى اتصالها بعراقة الأمة في ماضيها الحي، وعلى استمرارها في التعبير عن شخصيتها في مستقبلها. كما أن التجديد لم يعد مجرد احتذاء الثقافة الغربية والإقبال عليها والاقتباس منها وإنما حسن الاختيار والمفاضلة بين عناصرها، والتمييز بين الحسن والسيئ وعدم الوقوف عندها بل جعلها منطلقاً إلى الإبداع والابتكار بنماذج فيها تعبير عن ذاتية الأمة وتأصيل لثقافتها[42].

خامساً– صفحات مشرقة في تراثنا العربي

ما دامت الدعوة إلى تجديد التراث وفق رؤية معاصرة تتطلب حسن الاختيار، والتمييز بين الحسن والسيئ في ضوء نظرة عقلانية، كان علينا أن نقدم نماذج من الصفحات المشرقة في تراثنا العربي بغية الاستئناس بها في عملية الإحياء، ومن ثم في مسيرتنا الثقافية والتربوية على أنها من الماضي

الحيّ، ومن هذه النماذج:

أ- **الأنموذج العلمي التجريبي**: من الملاحظ أن مناهج التعليم في جل الوطن العربي لا تعنى العناية اللائقة بتبيان هذا المنهج العلمي، ولا بتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، إذ إنها في المرحلة الثانوية تكتفي غالباً بالإشارة السريعة التي تلمح ولا تصرح، ويكاد جيل كامل من المتخرجين حتى في الجامعات لا يعرف جيداً أهمية الإسهام العلمي لأمته في الحضارة العالمية المعاصرة ما عدا بعض المتخصصين الذين يقودهم الاختصاص إلى التعرف الأعمق في حين نجد أن ثمة اهتماماً أكبر بتاريخ الأدب[43].

كان من العرب علماء أدهشوا الآخرين، وحملوهم على الإيمان بقوة العقل العربي وإبداعه، ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي يعد من أشهر مشاهير العلماء العالميين، وجابر بن حيان وهو من ألمع علماء الكيمياء العالميين، والبيروني وله بحوث نادرة في الرياضيات والفلك إضافة إلى التاريخ والجغرافيا حتى قيل عنه إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ، وابن الهيثم واضع أسس الطريقة العلمية الحديثة فكتاباته في الضوء أدت إلى اختراع النظارات كما تشير إلى ذلك دائرة المعارف البريطانية[44].

ولقد أسهم العرب أيما إسهام في ميدان الرياضيات وعلم التعمية، وكان للخوارزمي فضل كبير في الإضافات التي وضعها في علم الحساب والجبر وهو أول من وضع الجبر مستقلاً عن الحساب، ووضع العلماء العرب علم المثلثات الكروية المائلة، واستعملوا المماسات والقواطع في قياس الزوايا والمثلثات، «وهذبوا الأرقام الهندية، وأوجدوا طريقة جديدة لها هي طريقة

الإحصاء العشري، واستعملوا الصفر للغاية التي نستعملها الآن، ووضعوا علامة الفاصلة للكسر العشري، وما كان لذلك كله من أثر في تقدم الرياضيات والعلوم.

وأبدع العرب في الكيمياء وسبقوا الغربيين في الالتجاء إلى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات، وإليهم يرجع الفضل في استحضار المركبات والحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة»[45].

ب- **الأنموذج الوظيفي**: انطلاقاً من الدعاء النبوي «اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني، وزدني علماً، وكل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به» ومن مقولة: «العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون» كان التركيز على النفعية الاجتماعية وعلى المنهج الوظيفي الذي يؤدي وظيفةً للمرء في تفاعله مع المجتمع فيلبي حاجاته ويرضي اهتماماته. وتجلّى هذا المنحى في رسائل الجاحظ في دعوته إلى النحو الوظيفي، ويعد الجاحظ من رواد النفعية الاجتماعية، إذ يرى أن الجميل ينبع من النافع، فالخير ليس في الكلمة الجميلة بقدر ما هو في الكلمة الناجعة التي تعمل في النفس عمل الغيث في التربة، كما تجلى هذا المنحى في مقدمة ابن خلدون حيث الدعوة إلى العناية بالناحية التطبيقية في اكتساب العلم، إذ ليس المهم معرفة القواعد والقوانين والاصطلاحات في حد ذاتها، وإنما المهم القدرة على استعمالها، والاستفادة منها عملياً، والشخص الذي يستوعب هذه القواعد والمصطلحات دون أن يطبقها عملياً يكون مثل الشخص الذي

يتقن صناعة من الصناعات علماً، ولا يكون له أي دراية بهذه الصناعات عملياً[46].

وفي ميدان الرياضيات كان ثمة اهتمام بالمسائل العملية التي تتناول ما يقتضيه العصر، ويدور حول المعاملات التجارية والصدقات وإجراء الغنائم والرواتب على الجيوش، كما تطرق إلى البريد وطرائق البيع والشراء..الخ.

وإن التقدم الذي أحرزه العرب لم يكن يقتصر على العلم النظري، بل تعداه إلى حياة المجتمع العربي وإلى الجوانب التطبيقية من العلوم، فكان للعلم عند العرب وظيفة اجتماعية فضلاً عن كونه بحثاً عن الحقيقة وتمكيناً لها.

ج- **الأنموذج التربوي**: ويعد هذا التراث مصدراً لتجديد التربية في الحاضر والمستقبل لما فيه من مبادئ ومفاهيم وخبرات وتجارب يسعى الفكر الحديث إلى اعتمادها وتأصيلها، فهو تراث يقرر مكانة الإنسان وحقه في الاعتماد على عقله وضميره وجهوده الذاتية في التعلم، ويعد التربية اللا مدرسية جزءاً من حياة المرء يجدر الاهتمام بها وتطويرها، كما يعد تعليم الكبار سبيلاً للتغيير والتطوير الاجتماعي، ويعد الحرية الفكرية أساساً لتطوير الشخصية الإنسانية ونموها ونمو العلم والمعرفة، والتعليم المستمر حقاً من حقوق الإنسان في كل زمان ومكان، وثمة مراعاة للمتعلم في تأكيد حريته في السعي إلى التعلم بإسقاط الحواجز والقيود المادية والاجتماعية، وفي تعرف استعداداته وطبائعه على النحو الذي يراه الفارابي، وإلى التبكير في تربيته وتعليمه بين أقرانه وتوجيهه مهنياً كما يرى ابن سينا، وإلى مراعاة قدراته العقلية والتدرج في تعليمه من السهل إلى الصعب، والانصراف إلى العلوم واحداً بعد الآخر، وتجنب فصل الدروس بعضها عن بعض، ومراعاة

التتابع والتكرار خشية النسيان، وتجنب الشدة على المتعلمين لأنها تفسد معاني الإنسانية، وتضر بشخصية المتعلم، وتفضيل العلوم المقصودة لذاتها على العلوم التي هي أدوات لغيرها، وهي المبادئ التي حددها ابن خلدون في مقدمته، ويؤيدها الفكر التربوي الحديث، كما أن التراث التربوي العربي عُني أيما عناية بالتربية البيئية حفاظاً على مصادرها الطبيعية ورأفة بأحيائها، وحماية لعناصرها ومكوناتها في أوقات الحروب خلافاً لما تقوم به إسرائيل والصهاينة في وقتنا الراهن.

د- الأنموذج اللغوي: ويعد التراث اللغوي العربي مصدراً للتجديد اللغوي في الحاضر والمستقبل، إذ إن أغلب المحاولات التي قام بها العلماء العرب في المجال اللغوي يتسم بالروح العلمية والفكر الموضوعي، كما هي عليه الحال عند أبي الأسود في استقرائه القرآن الكريم وأشعار العرب بغية استنباط قوانين للعربية وعند سيبويه في دراسة صفات الحروف وكيفية حدوثها، وعند الجاحظ في تبيان أركان التواصل اللغوي ووظائف الكلام وعيوبه، وعند ابن جني في علم الأصوات، وعند أبي نصر الفارابي في علم اللسان ونظرية الشمولية إلى هذا العلم «علم الألفاظ المفردة، علم الألفاظ المركبة، علم قوانين الألفاظ المفردة، علم قوانين الألفاظ المركبة، علم قوانين تصحيح الكتابة، علم قوانين تصحيح القراءة، علم قوانين تصحيح الأشعار»، وعند ابن خلدون في علوم اللسان العربي، إذ إنه يرى أن أركان علم اللسان هي «اللغة والنحو والبيان والأدب»[47].

هـ- الأنموذج الاجتماعي: في تراثنا العربي صفحات مشرقة في بناء المجتمع المتواد والمتعاطف والمتحاب حاضراً ومستقبلاً، انطلاقاً من الوشائج

في الأسرة على أنها الخلية الأولى في المجتمع وانتهاءً بالعلاقة بسائر أفراد المجتمع مروراً بالأرحام والجيران. وثمة تركيز على المشاركة الوجدانية والتعاطف بين أعضاء المجتمع كافة، إذ أبان الإسلام أن المجتمع المنشود هو المجتمع الذي يحب فيه المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»، وأن «خير الناس أنفعهم للناس». وحرص الرسول ﷺ في تربيته لأبناء أمته على يقظة الشعور بالمسؤولية في مختلف مرافق المجتمع كما تجلّى ذلك في قوله: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ويعد نظام الحسبة في تراثنا العربي ضرباً من ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أشبه بأجهزة الشرطة والصحة والبلديات في حياتنا المعاصرة. ولقد حدثنا التاريخ أن الناس كانوا يتولون الحسبة بأنفسهم عندما تضعف الحكومات، لأن مصلحة أهل كل بلد لا تتم إلا بدفع الأذى بعضهم عن بعضهم الآخر، والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم، والضعيف من حصة القوي.

وعرفت أمتنا ولاية المظالم، وقد ظهرت في الدولة العربية الإسلامية منذ القرن الأول للهجرة، وأدى ديوان المظالم دوراً في إحقاق الحق وإنصاف المظلومين.

وكان لنظام الوقف في التراث العربي الإسلامي دور كبير في منظومة

الحضارة العربية الإسلامية من حيث رعاية الصحة ونشر العلم والانتفاع بالمرافق العامة والبيئة الطبيعية، وماتزال الوقفيات في مدينة دمشق شاهداً على الدور الكبير الذي أداه الوعي الوقفي في حياة الأمة.

ز- الأنموذج الإنساني: وفي تراثنا العربي صفحات مشرقة في الحفاظ على حقوق الإنسان، ومنها حلف الفضول الذي يعد سبّاقاً في مجال الحفاظ على حقوق الإنسان صوناً واحتراماً، وقد روي أن الرسول ﷺ شهد حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان قبل نزول الوحي عليه، وقال بعد ذلك: والذي نفسي بيده، لقد شهدت في الجاهلية حلفاً «يعني حلف الفضول»، أما لو دعيت إليه اليوم لأجبت.

وقد تمّ فيه التحالف على إباء الضيم وهجر العار وأداء الحق. وعندما جاء الإسلام عزز هذه الحقوق للإنسان لأن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً» سورة النساء (1)، والهدف من وجود الناس على الأرض إنما هو التعارف والتحابّ والتآلف «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» سورة الحجرات (13).

وفي ضوء ذلك لم يكن ثمة فرق بين العربي والحبشي والفارسي في الحقوق والواجبات، إذ تساوى بلال الحبشي وسلمان الفارسي وعمار العربي، معيار التفاضل بين هؤلاء جميعاً صلابة الإيمان واستقامة العمل.

وإذا كانت المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» ترفع شعار «التربية من أجل السلام» انطلاقاً من أن معاقل السلام ينبغي أن تقام

في عقول الناس فإن التربية الإسلامية أرست دعائم السلام وحققت الاستقرار والأمان لا للمسلمين فحسب، بل لغيرهم من أبناء الديانات الأخرى.

سادساً– الماضي الحي والمستقبل المنشود

يعد دور الثقافة العربية في إطار الثقافة العالمية على الدوام دور إبداع وإضافة وعطاء، وظلت هذه الثقافة رغم خصوصيتها ثقافة إنسانية شاملة لا بتراثها الإسلامي فقط وهو ذروة عطائها، ولكن بما تمثله وبما تجاوزته من عناصر الحضارات الأخرى أيضاً، وبلغتها العربية التي ظلت لغة العالم فكراً وعلماً واقتصاداً وسياسة وفنوناً وحضارة ثمانية قرون[48].

إن خصائص الحضارة العربية من عراقة وشمول وترابط واتصال بالحضارات الأخرى وقدرة على الأخذ والعطاء والاقتباس والتفاعل والتجديد واحترام العقل والتعويل على التفكير واعتماد حرية الفكر والاجتهاد والتمسك بالقيم الأخلاقية والإنسانية، يؤكد ذلك كله توجهاً ذا رؤية متكاملة وبرامج متطورة وأساليب متجددة تحفظ لهذه الحضارة خصائصها الأصلية، وتمكنها من التفاعل الخلاق مع خصائص العصر في الحاضر والمستقبل.

ومن الشروط الضرورية لنهضتنا تحديث فكرنا وتجديد أدوات تفكيرنا وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصيلة معاً، وتجديد الفكر لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة التي ينتمي إليها إذا هو أراد الارتباط بهذه الثقافة والعمل على خدمتها. وعندما يتعلق الأمر بفكر أمتنا فإن عملية التجديد في ثقافتنا لا يمكن أن تتم إلا بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة، وإلا

بالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها وحاضرها، إنه بممارسة العقلانية النقدية في تراثنا وبالمصطلحات المنهجية لعصرنا، وبهذه الممارسة وحدها يمكن أن نزرع في ثقافتنا الراهنة روحاً نقدية جديدة وعقلانية مطابقة وهما الشرطان الضروريان لكل نهضة[49].

إن تراثنا الفكري كائن ينمو ويتراكم ويتناقض ويتصارع في الحياة، ولو أنه ماض، فكيف ندرس هذا الكائن الحي الميت في الوقت نفسه؟ فهو ميت أي ماض بالنسبة لنا، ولكنه حي فينا، هو ماض تفصلنا عنه أحياناً مسافات زمنية، لكنه حي، فحين نقرأ الأدب الجاهلي نشعر أن بيننا وبينه حياة، وعندما نقرأ شعر المتنبي نشعر أنه يعبر عن رؤانا وما يجول في نفوسنا، وستبقى الأجيال تردده لأنه إنساني في أبعاده ومراميه.

ومن البدهي والحتمي أن نحتفظ بمعالم تراثنا، وأن نسعى إلى إحياء ما اندثر منه، أو ما تراكم عليه من غبار النسيان، فكم في الزوايا من خبايا! وكم بين حطام الماضي ما من شأنه أن يعين على بناء الحاضر وتشييد المستقبل دون نبو في الفكرة ولا في الشكل[50].

وإننا نتوجه إلى التراث ماضياً وحاضراً لنسائله ونحاوره بهدف جعله يسهم في تسليط الأضواء على مشكلاتنا الراهنة، دون أن يلزمنا ذلك بالانصياع لموقف أو رأي في ذلك التراث انصياعاً عشوائياً أو على أساس من التقديس والاحترام المسبق له[51].

إن كل ما من شأنه العون على بناء الحاضر وتشييد المستقبل هو الماضي الحي الذي لابد من التركيز عليه، ولا يسع أمة تجدد ذاتها أن تقطع صلتها بماضيها، وقد ثبتت للأمة العربية عقيدتها، وبقيت لها ذاتيتها،

يكشف عنهما تراث غني يمثل ماضياً حياً يقاوم الفناء، فما مسوّغات استمرارية هذا الماضي الحي؟

- هو تراث حي لأنه إنساني في قيمه وفضائله وفي مناهجه ومواقفه، استمد مصدره من أصول العقيدة، وأسهمت فيه حضارات وعبقريات من سائر الأمم والشعوب، وهو موجه إلى الإنسانية جمعاء.
- هو تراث حي لأنه ظل سارياً بين الجماعات، كامناً في حناياها، موصولاً من جيل إلى جيل، متغلغلاً بين النفوس، لم تخمد جذوته بين الأفراد عامةً، وقد يجدده بعض الأعلام هنا وهناك على حقب، وقد أعان بروحه وقيمه ومثله الأمة على الصمود مهما داهمت أقطارها الغزوات والنكبات.
- هو تراث حي لأنه قابل للتطور، صالح للبقاء في كل زمان ومكان، يعوّل على أشرف ما في الإنسان عقله وضميره، ويدعو إلى ديمقراطية المجتمع والإخاء والمساواة في الإنسانية، وهي معايير صالحة في هذا العصر وفي سائر العصور[52].

وفي ضوء هذه المسوغات كافة كان علينا في توجهنا المستقبلي العمل على:

1- استكشاف التراث الحي الذي لم يحقق بعد، ما هو منه على الصعيد العربي، وما هو منه على الصعيد العالمي في مكتبات العالم وذلك بروح العقل الناقد ومناهج العلم الموضوعية، وثمة من يرى أنه لابد من تحقيق خطوات ثلاث من أجل تحقيق الحد الأدنى من الموضوعية في دراسة التراث، وهذه الخطوات الثلاث متداخلة وهي[53]:

أ- **الخطوة الأولى**: قوامها المعالجة البنيوية، وتعني الانطلاق من النصوص في

دراسة التراث، واستخلاص معنى النص من ذات النص، أي من خلال العلاقات القائمة بين أجزائه.

ب- **الخطوة الثانية**: هي التحليل التاريخي: وتعني ربط فكر صاحب النص بجماله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية.

ج- **الخطوة الثالثة**: هي الطرح الإيديولوجي: ويقصد به الكشف عن الوظيفة الإيديولوجية الاجتماعية السياسية التي أداها الفكر المعني.

2- استلهام التراث وتحويله إلى مؤثرات فاعلة في حياتنا المعاصرة وفي بناء المستقبل الذي نبتغيه بالاعتماد على وسائل متعددة منها:

أ- نشر التراث المتخير إحياؤه والتعريف به

ب- ترجمته إلى اللغات الحية الأخرى

ج- إدراجه ضمن الثقافة الشائعة في المجتمع وضمن البرامج التعليمية

هـ- الانطلاق منه في أعمال إبداعية جديدة كالقصة والمسرح والرواية والسينما وغيره من النشاطات الفكرية وفي العمارة، وتقديمها برؤية جديدة وقراءة معاصرة تستطيع التأثير في المستقبل وتغييره نحو الأفضل.

و- اعتماده في ضبط قيم ومناهج حاضرة

ز- الاستناد إليه في تطوير فلسفة عربية متميزة تعبر عن ذاتية الأمة العربية وشخصيتها القومية في عصر متغير ومتطور باستمرار.

3- اعتماد الفلسفة العربية المتميزة والمستندة إلى استلهام قيم التراث وفضائله بعد جلائها وتمييزها وتمحيصها لمواجهة مشكلات الحضارة المعاصرة والتماس حلولها، وجعل ذلك رسالة متجددة يحملها العرب إلى العالم

الإسلامي، وإلى العالم الثالث، ويسهمون بها في خدمة الإنسانية جمعاء[54].

4- التركيز على كل ما يوحد في عملية الإحياء والنشر، ونبذ كل ما يفرق وإبعاده، إذ إن الواجب يقضي بأن نبعد من حياتنا المعاصرة ما قد نختلف حوله، وأن يركز الجهد على التراث العلمي العربي الذي يعيد للعقل العربي ثقته بنفسه، ويقدم للأجيال أنموذجاً مما ينبغي أن يجعلوه رسالة ثقافية لهم، والمؤسف أن ينصرف بعض الكتاب والإعلاميين إلى إيقاظ الفتن والاختلافات الميتة، وهم بعملهم هذا يعمدون إلى قتل العقل العربي وإعادته إلى جدليات طواها الزمن. وما أزعج بعض الندوات التي تبثها بعض الفضائيات العربية حول قضايا ووقائع حدثت قبل ألف وأربعمائة عام، وطالما سمعنا متحاورين يتحدثون بعصبية وانفعال حول هذا التاريخ كأنه راهن ومعاصر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تفكك الوعي الفكري لأصحابها!

5- التركيز على الصفحات المشرقة من التراث في عملية الإحياء والنشر، وتعريف أجيالنا والعالم بها بطريق ترجمتها إلى اللغات الحية.

6- إحداث مقرر وضع المصطلحات العلمية في الكليات العلمية في جامعات الوطن العربي استئناساً بما ورد منه في تراثنا حال وجوده.

7- تشجيع طلبة الدراسات العليا للبحث في ميادين العلوم المختلفة في تراثنا، وتقديم كل الدعم المادي والمعنوي لهم، ودعم الجهات المعنية بهذا الجانب كمعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب.

8- إحداث موقع على الشابكة «الإنترنت» لرصد الأنشطة والفعاليات

التراثية في كل علم تعريفاً بالمخطوطات في بابه، وتحقيقاً ونشراً، وتبياناً لكل جديد في ميدانه على الصعيدين العربي والعالمي.

9- اعتماد أساليب جديدة وطرائق حديثة ورؤى معاصرة في قراءة تراثنا في مختلف ميادينه، بحثاً عن الأصالة فيه، وتعريفاً للأجيال الجديدة بها ربطاً للأصالة بالمعاصرة.

10- السعي إلى إقامة معارض دولية سنوية تعنى بالمخطوطات العربية تحقيقاً ونشراً، وباللقى والمكتشفات في ميدان الآثار في الوطن العربي.

11- تخصيص جوائز قيمة لأفضل كتاب علمي حقق في العام نفسه، ولأفضل موقع على الشابكة يرصد الفعاليات في مجال التخصص.

12- تشجيع الاتفاقيات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية ولاسيما الدول التي تضم مكتباتها مخطوطات عربية بغية التبادل الثقافي والتعاون في هذه المجالات وغيرها من الشؤون الثقافية.

13- دعوة المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي إلى طباعة أمهات الكتب المحققة طبعات ميسرة وبأسعار مناسبة بغية إيصالها إلى أوسع شريحة من الجماهير، ووضعها على الشابكة تعميماً للفائدة.

14- الإكثار من الندوات والمحاضرات والمؤتمرات في مجال التوعية بالتراث تعزيزاً للانتماء، وإعادة للثقة بإبداعات العقل العربي في مختلف ميادين المعرفة.

15- تكوين الأطر العربية على المستوى الجامعي والدراسات العليا في مجالات اللغات القديمة والبحث والتنقيب عن الآثار في الوطن العربي لتحل محل البعثات الأجنبية الأثرية التي تنقب عن هذه الآثار في بلادنا العربية، بعد أن تبين أن نفراً من الأجانب لا يتسم بالموضوعية في

الكشف عن آثارنا.

16- تنشيط السياحة الثقافية في مختلف مجالاتها لتعريف الآخرين بتراث أمتنا بوجهيه المادي والمعنوي، وتزويد الأدلاء السياحيين بالمعارف والمعلومات الدقيقة التي يحتاجون إليها في ميادين عملهم.

17- إيلاء العناية بالآثار في مناهجنا التعليمية وفي مختلف المراحل، بغية تزويد الناشئة بالمعلومات عنها، وفسح في المجال للزيارات الميدانية لها، تنمية للاعتزاز بآثار أمتهم، وإسهاماً منهم في الحفاظ عليها.

18- إيلاء العناية بالتراث اللا مادي في حياتنا الثقافية إلى جانب التراث المادي، حفاظاً على هذا التراث اللا مادي المتمثل في الأغاني والموسيقا والأمثال والحكم والأساطير والقصص والحكايات والتقاليد والعادات..الخ.

19- تعزيز تدريس اللغات القديمة في جامعات الوطن العربي انسجاماً مع الكشف عن عراقة تراثنا العربي وآثاره التي ماتزال باقية من تلك الحقب القديمة.

20- الارتقاء بالذائقة الجمالية عند الناشئة بإطلاعهم على مختارات شعرية ونثرية من تراثنا الأدبي الفني، تتسم بالجمال شكلاً ومضموناً، ودعوة اتحاد المجامع اللغوية العربية إلى القيام بتنفيذ هذا المشروع إلى جانب مشروع «المعجم التاريخي للغة العربية».

لابد لنا من الإشارة إلى أن الحبيبة التي ورثت كنوز الأرض علماً وحكمة إنما هي حبيبتنا العربية الفصيحة:

أيا لغة القرآن أنت حياتنا ومرآتنا فيما نقول ونفعل
ورثت كنوز الأرض علماً وحكمة فما لغة في الأرض إياك تعدِلُ

وإن تراث الماضي الحي وفكر الحاضر ونشدان المستقبل، ذلك كله يؤكد

الحاجة الماسة إلى استعمال اللغة الأم في بناء نهضتنا وغدنا المنشود.

وأخيراً إن ضروب الثقافة التي ننشدها في توجهنا المستقبلي لابد أن تكون كافة باللغة القومية باللغة الأم «العربية الفصيحة» تتدفق من ينابيعها وتستمد قوتها من حياتها لأنها هويتنا، ولا وطن من غير هوية كما أشار إلى ذلك السيد الرئيس بشار الأسد في خطاب القسم عندما دعا إلى إيلاء اللغة العربية كل عنايتنا ورعايتنا في مناهجنا وإعلامنا وسائر شؤون حياتنا، وعندما أصدر القرار الجمهوري بتشكيل لجنة للتمكين للغة العربية وقدَّم إلى مؤتمر القمة العربي في دمشق مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة عام 2008 واعتمده المؤتمر، ووضعت آليات تنفيذه في مؤتمر الدوحة عام 2009. وما أجمل مقولة «فيختة» في دعوته إلى اعتماد لغته الأم الألمانية في نهضة أمته! إذ يقول: إن التربية التي ننشدها ينبغي لها أن تكون وطنية بكل معنى الكلمة، ينبغي أن تكون باللغة الألمانية، والمعلمون ينبغي لهم أن يعلّموا بالألمانية، والكتب الدراسية تكون بالألمانية، ذلك لأنني لا أتصور كيف يكون الأمر غير ذلك، إنني لا أتصور أن يعلم المعلمون وتؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الألمانية أياً كانت هذه اللغة، والدولة التي تفرض على الشعب التجنيد الإجباري لرد الغزو المادي مع احترام حقوق الفرد وحريته في الظروف العادية لا يحق لها فقط بل يجب عليها أن تفرض عليه أيضاً التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحي، وتضمن له الاستمرار والخلود، وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس اللغة القومية الأصلية التي هي القوة الطبيعية الأولى للأمة!

وما أجدر بالسياسيين وبالمسؤولين عن الشؤون التعليمية والثقافية في

وطننا العربي أن يتمثلوا هذه الدعوة في اعتماد العربية في المدارس الخاصة والجامعات الخاصة وما أكثر العبر من الأمم الحية! وما أقل الاعتبار في واقعنا العربي!

حواشي البحث

1- الدكتور يوسف محمد رضا- معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة –مكتبة لبنان- ناشرون- بيروت 2006 ص1717

2- الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- دراسات ملقى يحيى بن يعمر: التراث ودوره في البناء الحضاري المعاصر- وزارة الشؤون الثقافية بتونس- 1976 ص126

3- عز الدين المدني- معالجة التراث واستعماله في الأدب التونسي الحديث- المرجع السابق ص214

4- الدكتور فهمي جدعان- التراث العربي- الشرق الأوسط- العدد 5523 تاريخ 1994/1/11 ص12

5- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 1991 ص24

6- المرجع السابق ص45

7- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- إستراتيجية تطوير التربية العربية- تونس 1979 ص39

8- توفيق الطويل- أسس الفلسفة- الطبعة الخامسة- دار النهضة العربية- القاهرة 1977 ص6

9- الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- دار الجيل- بيروت 1989 ص85

10- المرجع السابق ص84

11- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- إستراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص53

12- محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت 1984 ص117

13- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- إستراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص49

14- الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا التربية المعاصرة- دار الندوة للدراسات والنشر- دمشق 1992 ص10

15- الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- المكتب الإسلامي- دمشق 1977 ص92

16- المرجع السابق

17- سنن النسائي 8767

18- الدكتور محمود أحمد السيد- بعض السمات البارزة للتربية العربية الإسلامية- مطبعة العجلوني- دمشق 2001 ص50

19- الدكتور محي الدين صابر- قضايا الثقافة العربية المعاصرة- الدار العربية للكتاب- تونس 1983 ص173

20- المرجع السابق

21- الدكتور عبد الكريم اليافي- دور التعريب في تأصيل الثقافة الذاتية العربية- تونس 1984 ص85

22- المرجع السابق ص87

23- المرجع السابق ص92

24- الدكتور محمود أحمد السيّد- في قضايا الثقافة- مطبعة العجلوني- دمشق 2002 ص25

25- الدكتور عبد اللطيف ياسين- فضل الأطباء العرب على أوربا في القرون الوسطى- جريدة تشرين

السورية- العدد 5844 تاريخ 1994/1/22 ص6.
26- الدكتور محمود أحمد السيد- في قضايا الثقافة- مرجع سابق ص26.
27- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مرجع سابق- ص24.
28- الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»- تراثنا بين ماض وحاضر- دار المعارف 1970 ص8
29- المرجع السابق
30- الدكتور جميل صليبا- مستقبل التربية في الشرق العربي- مطبعة جامعة دمشق 1962 ص91
31- الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- مرجع سابق- ص117
32- المرجع السابق ص58
33- الدكتور زكي نجيب محمود- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت 1973 ص18
34- المرجع السابق ص29
35- الدكتور عبد العزيز العاشوري- لماذا إحياء التراث؟- المرجع الثاني ص26
36- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مرجع سابق ص38
37- الدكتور محمد عمارة- التراث في ضوء العقل- دار الوحدة للطباعة والنشر- بيروت 1984 ص5
38- عباس محمود العقاد- مجلة الهلال- عدد نيسان 1936
39- الدكتور غالي شكري- التراث والثورة- دار الطليعة- الطبعة الثانية- بيروت 1979
40- الدكتور عون الشريف قاسم- في معركة التراث- مرجع سابق ص168
41- المرجع السابق ص106
42- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- إستراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص81
43- الدكتور رياض نعسان آغا- بين السياسة والفنون- دار البعث 2009 ص16
44- قدري حافظ طوقان- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك- الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية- القاهرة 1954 ص18
45- المرجع السابق
46- الدكتور محمود أحمد السيّد- في تراثنا العربي- مطبعة العجلوني- دمشق 2002 ص63
47- الدكتور محمود أحمد السيّد- في طرائق تدريس اللغة العربية- مطبوعات جامعة دمشق 2007 ص74-86.
48- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- الخطة الشاملة للثقافة العربية- تونس 1992 ص45
49- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مرجع سابق ص33
50- الدكتور محمد السويسي- نحن والتراث- مرجع سابق ص129
51- الدكتور الطيب التيزيني- من التراث إلى الثورة- دار دمشق- 1979 ص733

52- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق ص72

53- الدكتور محمد عابد الجابري- التراث والحداثة- مرجع سابق ص32

54- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- استراتيجية تطوير التربية العربية- مرجع سابق.